الفصل الثاني

«دروس في الدعوة وأسس للدولة»

المبحث الأول: من الدعوة إلى الدولة

المبحث الثاني: أحاديث نبوية بين الحاكم والمحكوم

المبحث الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المبحث الأول

من الدعوة إلى الدولة

جاء محمد لقومه بدعوة قلبت حياتهم رأساً على عقب، لأنها لم تتناول معتقداتهم فقط، بل شملت حياتهم في جميع مظاهرها: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية.

فكان لابد لهم من رد هذه الدعوة، وقهر صاحبها، ليرجع إلى الصف الذي خرج عنه، متراجعاً عن دعوته التي زلزلت كل ماهو جاهلي.

فقريش الآمنة العزيزة الجانب الغنية بتجارتها، حامية الكعبة، وصاحبة الرياسة في محيطها، لاشك إنها ستعادي من يريد لدينها تبديلا، ولنظامها تغييرا، ومحمد عليه الصلاة والسلام داعية توحيد الله، كغيره من الأنبياء والرسل، فلن ترضى بإله واحد عن آلهتها، وأصنامها الجاثمة حول البيت العتيق.

لم يكتف محمد بالدعوة إلى توحيد الله، وتحريم سيء ماكانوا يمارسون، بل دعا إلى مالايحبون، وإلى مايفقدهم امتيازاتهم وسيطرتهم. فقد دعا إلى حق المساواة وهم الذين قضوا أعمارهم في التفاخر بالأنساب والتمايز الطبقي، فما بال محمد ﷺ يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد، وتطبيق العدالة الاجتماعية وإقامة دولة تعتمد على مايقدمه الفرد للجماعة بغض النظر عن أصله ونسبه.

لذا لم تستطع قريش صبراً على دعوة محمد ﷺ، فبدأت تمارس قوتها

وبطشها على محمد رسول الله وصحابته.

فقد روى عبد الله بن عمر قال: «بينما النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور، فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك».[1]

ومن أشكال المضايقة التي لاقاها رسول الله ﷺ من كفار قريش «أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب على رأسه وهو يسير في سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: يابنية لاتبكي، فإن الله مانع أباك».[2]

لقد سفه رسول الله ﷺ أحلام قومه، وعاب عليهم دينهم، «فأحاطوا به يوما يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله: نعم أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه.. فقام أبو بكر ﷺ عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله..».[3]

إن هذا الموقف له مثيل في كل تجارب الأنبياء والرسل مع أقوامهم، فهذا مؤمن آل فرعون يدافع عن موسى ﷺ، في مجلس فرعون الذي عقده، لإنهاء دعوة موسى ﷺ.

قال تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ۞ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك

---

[1] رواه البخاري.

[2] ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد (بيروت: دار الجيل. [د.ت]) ج١، ص٢٥٩.

[3] م. س. ن: ج١، ص٢٥٩.

كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب﴾.[1]

لم ييأس رسول الله ﷺ، على الرغم من جهود قريش، وإيذائها له، لذلك اتجه إلى توسيع دائرة الدعوة خارج مكة، فكانت رحلة الطائف عسى أن يجد فيها من يؤمن بدعوته، فيكون نصيراً له، وعزاء عن قومه الكافرين.

لكن أهل الطائف لم يكونوا أحسن حالاً من جيرانهم أهل مكة، وخاصة أن هناك تحالفاً فيما بينهما. «فقد ضرب رسول الله ﷺ، بالحجارة من قبل السفهاء والأطفال، حتى أدمى وجهه الكريم، وإذ بملك الجبال يناديه قائلاً: يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولايشرك به شيئاً».[2]

لقد كان رد رسول الله ﷺ على وحي السماء، غاية في الرحمة والصبر، وكظم الغيظ، والأمل بالمستقبل، وهو قادر على إيقاع الأذى بمن آذوه عن طريق وحي السماء.

لأن الغاية من دعوة الاسلام الذي جاء بها محمداً ﷺ ليس إنهاء الكفر، وإبادة أهله، وسيادة الاسلام بالإكراه على الآخرين. بل اصلاحهم وهدايتهم، ونشر العدل، وإزالة الظلم عن الناس كافة، بحيث يصبحون أحراراً فيما يعتقدون.

على الرغم مما أصابه في الطائف فرسول الله ﷺ يناجي ربه بهذا الدعاء «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي

---

[1] سورة غافر: ٢٦، ٢٧.

[2] ابن هشام. م. س: ج٢، ص٤٨.

أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لاحول ولا قوة إلا بك».[1]

لقد توالت الآيات القرآنية في النزول (إبي العهد المكي) تثبيتاً لفؤاد النبي، وحاثة إياه، وصحابته، على مزيد من الصبر، وتحمل الأذى، ولهم فيما سبق من الأنبياء والرسل أسوة حسنة، لما عانوه من أقوامهم. فقديماً كذب الأنبياء، وقيل عنهم أنهم كهنة، وسحرة، ومجانين.. الخ.

وقال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا..﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك..﴾.[3]

هذا بعض مالاقاه رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام من قومه. فماذا أصاب أصحاب محمد من تعذيب بأيدي كفار قريش؟.

لقد أصاب أصحاب رسول الله ﷺ ألوان كثيرة من العذاب والاضطهاد، فمن الحرق والتعذيب في رمضاء مكة، إلى التعذيب الذي أدى إلى فقدان البصر، ومن الهجرة، وترك الوطن، إلى الاستشهاد في سبيل الله، وأشكال أخرى من الاضطهاد.

أصاب صحابة الرسول، وبالأخص العبيد والضعفاء منهم، عذاب شديد من قبل كفار قريش.

فقد روى ابن اسحق: «.. ثم إنهم عدوا على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم

---

[1] م.س.ن، ص.ن.

[2] سورة الأنعام: ٣٤.

[3] سورة فصلت: ٤٣.

ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذ اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم..».[1]

فمن هؤلاء الصحابة الذين عذبوا، وأبلوا بلاء حسناً، (بلال بن رباح) مولى أمية بن وهب بن حذافة من جمح، «كان إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكة، يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقال له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد..، وكان يمر به وهو يعذب - ورقة ابن نوفل - بذلك فيقول ورقة: (أحد أحد والله يابلال، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بني جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذته حناناً[2] ..».[3]

إن الذي جعل ورقة بن نوفل يتخذ هذا الموقف المؤيد لبلال، ولعقيدته، ومؤنباً ومخاصماً لسادة بلال المشركين، هو أسلوب الدعوة الذي انتهجه رسول الله وصحابته، والمتمثل بأداء الواجب مهما كان مركز صاحبه، دون المطالبة بالحقوق، ولمعرفته أن هذا النبي وأصحابه أهل دعوة حق ورسالة سماوية.

لقد لاقى صحابة آخرون عذاباً شديداً، من قبل مشركي مكة، فكان منهم آل ياسر.

روى ابن اسحق: «.. وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه، وبأمه، وكانوا أهل بيت اسلام، إذ حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها، وهي

---

[1] ابن هشام، م.س. ج١، ص٢٧٧.

[2] حنانا: أي إذا مات أجعل قبره متبركاً به.

[3] ابن هشام، م.س: ج١، ص٢٧٧، ٢٧٨.

تأبى إلا الاسلام وكانت أول شهيدة في سبيل الله».[1]

إلا أن أذى الكفار واضطهادهم لصحابة رسول الله ﷺ جعل قسم من الصحابة يهاجر إلى الحبشة، ولقد كان لهذه الهجرة في سبيل العقيدة، أثر نفسي في نفوس كفار قريش، وكان بينهم آنذاك عمر بن الخطاب، «.. فعن أم عبد الله بنت أبي حثمة، قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله! قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله آذيتمونا، وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه، فيما رأى خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له: ياأبا عبد الله لو رأيت عمراً آنفاً ورقته، وحزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلايسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، فقالت: يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الاسلام..».[2]

على الرغم من شدة العذاب الذي أصاب صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد كان يأمرهم بالصبر والحلم، وكظم الغيظ، ومنعهم من الانتقام لأنفسهم من أعدائهم، بل منعهم حتى من الدفاع عن أنفسهم وذلك بوحي من السماء. لأن العذاب، والمحن هو الذي يفرز الخبيث من الطيب، وتحمل هذه الظروف الصعبة هي التي تؤهل حامليها لقيادة المجتمع الجديد بمجتمع الدولة على أساس الدعوة والعقيدة.

---

[1] ابن هشام: ج١، ص٢٧٩.

[2] ابن هشام: م.س، ج١، ص٤٩٤، ٤٩٥.

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة..﴾.[1]

لكن الانسان يضعف أحياناً أمام أهوال العذاب، لذا طلب صحابي من رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم ويخلصهم من العذاب. فقد «روى عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يارسول الله: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر الوجه، فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب، مايصرف عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله».[2]

وفي الأمم التي خلت أوصى بوذا أحد تلامذته المدعو (بوريا) قبل أن يرسله للتبشير سأله:

- إذا اتفق يابوريا ووجه إليك أحدهم ألفاظاً بذيئة خشنة وقحة فماذا أنت قائل؟

- أجابه التلميذ: أشكرهم لأنهم لم يضربوني.

- وإن ضربوك أو رموك بالأحجار؟

- أشكرهم لأنهم لم يضربوني بالعصا أو بالسيف.

- وإن ضربوك بالعصي أو بالسيوف.

- أشكرهم لأنهم لم يحرموني الحياة نهائياً.

- وإن حرموك الحياة؟

- أشكرهم إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيء دون ألم كبير.

«فقال بوذا حينئذ: أحسنت يابوريا بما أوتيت من الصبر، والعزم، والحزم، والثبات. فاذهب إلى القبيلة وأقم فيها، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك،

---

[1] سورة النساء: ٧٧.

[2] رواه البخاري.

وكما تعزيت فعزهم معك، وكما وصلت إلى النرفانا الكاملة فأوصلهم أيضاً معك».[1]

أما اليسوع فقد قال مؤنباً أحد أتباعه عندما سل سيفه «... وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده، واستل سيفه، وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».[2]

إن المحن، والصعوبات التي تصيب الدعاة، هي التي تفرز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، فلو ترك الأمر بدون ابتلاء، لاستوى في ذلك الصادق والكاذب، لأن التضحيات في سبيل الدعوة، هي المحك الأساسي والجوهري لمدى الالتزام بمبادئ هذه الدعوة، وصدق الذين يعتنقونها.

قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ۞ ولقد فتنا الذين من قبلكم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.[3]

وتتوالى المحن، والمضايقات لرسول الله وأصحابه، فمن الحصار والمقاطعة الاقتصادية، التي استمرت ثلاث سنوات، إلى الهجرتين الأولى والثانية، ولعل الهجرة فيها من العذاب والألم، أكثر مما في العذاب الجسدي من ألم.

في الهجرة، ترك للمال، وللأهل، وللوطن، أما زمن العودة فغير معروف، إنها الاختبار الثاني لرجال الدعوة، بعد صبرهم، وتحملهم لآلام العذاب الذي حل بهم وهم في مكة.

لقد أسس المسلمون، ورسولهم الكريم دولة الاسلام في المدينة المنورة،

---

[1] الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار صعب، ١٩٨٦) ج٢، ص١٥.

[2] انجيل متى: الاصحاح ٢٦.

[3] سورة العنكبوت: ٢، ٣.

وصارت لهم شوكة وقوة، يستطيعون أن يقاتلوا من يعترض دعوتهم، وفي حالات كانوا هم البادئين بالقتال، لقد أذن لهم بذلك بعد تشكل المجتمع المسلم وتمايزه.

ويبقى فتح مكة، عاصمة ومركز المشركين آنذاك. حدثاً له أهمية خاصة لقد أعطى رسول الله ﷺ، في موقفه من مشركي مكة، أعدائه وخصومه في العقيدة والذين أوقعوا كل أشكال الاضطهاد به وبأصحابه، درساً غاية في الرحمة، والتسامح، والمحبة، والعفو عند المقدرة، وذلك عندما كبح حب الانتقام عند صحابي من الأنصار، عندما استل حسامه لإراقة دماء مشركي مكة.

فقد «بلغ رسول الله ﷺ أن سعد بن عبادة، قال لأبي سفيان عندما رآه في مضيق الوادي: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بقوله هذا، فقال: بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم الله الكعبة. وأمر قادة جيشه أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم. وخطب رسول الله قائلاً:... يامعشر قريش ماترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».[1]

فعلى الرغم من أن رسول الله وصحابته، أصبحوا يملكون القوة، التي يستطيعون بها الانتقام من كفار قريش، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، بل أخمدوا نار الفتنة، وأنهوا دورة العنف في المجتمع الاسلامي قبل أن تبدأ ثانية.

وبهذا كان بنيان الدولة الاسلامية - ماالتزمت بهذا المبدأ - قوياً متيناً ترتبط أفراده المحبة، والود والتسامح، والعفو.

وقال عيسى عليه السلام: «أرأيتم البنائين كيف لايضعون حجرا، إلا والأساس نصب أعينهم، فيقيسونه ليروا إذا كان مستقيماً لكيلا يسقط الجدار».[2] هذا بالنسبة لمن يبني جداراً، فكيف بمن يسعى لبناء مجتمع جديد؟!

---

[1] ابن هشام، م.س: ج٢، ص٤١.

[2] انجيل برنابا: ص١٤١.

فقد عبر بوذا عن أهمية التسامح مع الآخرين قائلاً: «فلئن كنا نرد على البغض، ببغض مثله، فكيف يمكن أن تنتهي البغضاء؟».[1]

إن المجتمع الذي كان محمد ﷺ يسعى لبنائه، وقد بناه فعلاً، هو مجتمع المحبة، والايثار، والتسامح، والعدل، مجتمع البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا..

ترتبط قضية التعاضد الاجتماعي الذي دعى إليها الاسلام، باستقرار، واستمرار المجتمع على أسس تكافلية بين جميع أفراد الجماعة، وبكل مستوياتهم الاجتماعية. عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».[2]

---

[1] فيلسيان شالي، موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠) ص:٩٩.

[2] رواه الشيخان.

المبحث الثاني

أحاديث نبوية بين الحاكم والمحكوم

لم يترك رسول الله ﷺ شيئاً ذا أهمية في عالم الدين والنواميس الأخلاقية، إلا وحث عليه إذا كان خيراً، وحذرنا منه إذا كان شراً.

وقد وضع حدوداً تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لما لهذه العلاقة من أهمية في استقرار الجماعة واستمرارها.

فكانت حياته، عليه الصلاة والسلام: مثالاً حياً لصورة الحاكم المسلم على الرغم من بساطة الدولة الاسلامية في بدايتها من حيث التركيبة السياسية، إذ كانت أقرب ماتكون إلى التنظيم القبلي وإن بدت أكثر تطوراً، وقد أعطى نموذجاً فريداً في قيادة الجماعة، فكانت استشارته لأصحابه من العلامات البارزة في سلوكه السياسي، فلم ينفرد برأي، مادامت الجماعة المسلمة ترى غير ذلك، فالمسلمون أعلم بأمور دنياهم، ومادام الأمر لايتعلق بوحي السماء، فالرسول ﷺ يصيب ويخطأ.

قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.[1]

---

[1] سورة آل عمران: ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾.[1]

إن ممارسة رسول الله كقائد للدولة الاسلامية ومشاورته لأصحابه أنهى سلوك استبداد الحاكم لشعبه، لأن سياسة الدولة أمر دنيوي. وبذلك الغى مفهوم الحاكم المقدس المرتبط بالسماء، الذي لايعرف حكمه الخطأ أو المراجعة فلم يحصر المسؤولية بشخص الحاكم فقط، بل جعلها مسؤولية اجتماعية، كل في عمله، بدءاً من المنزل وانتهاءاً بالحاكم الأعلى للأمة..

«فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالامام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».[2]

فالرعاية في هذا الحديث هي حفظ الأمانة وإقرار المسؤولية، وهي موزعة على جميع أفراد المجتمع، كل مسؤول عما كلف برعايته وحفظه. وإذا لم تحفظ الأمانة فنحن أمام الظلم الشامل لجميع مستويات الجماعة، فالحاكم الذي لايساعد الناس على نيل حقوقهم هو ظالم.

والرجل الذي يسيء معاملة زوجته وأولاده هو ظالم.

والمرأة التي لاتراعي حقوق زوجها، وتهمل تربية أولادها هي ظالمة.

والرجل الذي لايحفظ مال سيده، أو من استأجره، هو ظالم.

وفي مجتمع يعم فيه الظلم واللامسؤولية يحتاج إلى عمليتي تطهير، وإعادة بناء، وفق معايير العدل والمساواة لأنه مهدد بالإنهيار.

---

[1] سورة الشورى: ٣٨.

[2] رواه البخاري.

لكن ماهي واجبات المحكوم تجاه الحاكم؟ وإلى أي مدى يجب طاعة الحاكم؟

٦- واجبات المحكوم تجاه الحاكم:

يمكن تقسيم واجبات المحكوم تجاه الحاكم إلى ثلاثة مستويات:

أ- المستوى الأول: الطاعة في المعروف:

هذه الطاعة مشروطة بطاعة أولى الأمر لله ولرسوله.

قال تعالى: ﴿ياأيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾.[1]

ولهذه الطاعة حدود، أولها: استطاعة الفرد نفسه أن يفي بالواجبات المترتبة على البيعة.

«روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم».[2]

وثاني هذه الحدود الطاعة في المعروف، فلا طاعة في المعصية.

«وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: على المرء السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».[3]

ب – المستوى الثاني: النصيحة وقول كلمة الحق للحاكم:

«قال ﷺ: إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم».[4]

و«قال ﷺ: الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة قالوا لمن

---

[1] سورة النساء: ٥٩.

[2] رواه الشيخان.

[3] رواه مسلم.

[4] رواه مسلم.

يارسول الله؟ قال ﷺ: لله، وكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».[1]

لكن النصيحة الهادئة اللينة، لاتجد نفعاً، في بعض الأحيان، وخاصة إذا كان الحاكم جائراً، فهنا تصبح كلمة الحق من أعظم أشكال الجهاد. لأن قول الحق يمنع استبداد الحاكم في رعيته.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».[2]

«وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».[3]

ويلاحظ من الحديثين السابقين أن تغير المنكر يتم بالقول، وإلا بالقلب، أما التغير للمنكر باليد فيحتاج إلى قوة بحيث تكون العاقبة في صالح الآمر بالمعروف، ولاتنعكس عليه سلبا، وإلا صار هذا التغيير فتنة اجتماعية.

لكن ماهو موقف المسلم إذا ابتلى بحاكم جائر؟ وهنا نكون في المستوى الثالث لحدود الطاعة.

ج- الصبر وأداء الواجب:

«فعن أبي مسعود ﷺ. قال: قال رسول الله ﷺ: إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها قالوا: فما تأمرنا يارسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم».[4]

و«عن عوف بن مالك الأشجعي عن رسول الله ﷺ قال: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه ابن ماجه والترمذي وأبو داود.

[3] رواه مسلم.

[4] رواه الشيخان.

تبغضونهم ويبغضونكم. قلنا: يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا. ماأقاموا فيكم الصلاة، لاماأقاموا فيكم الصلاة».[1]

«وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لاننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله منه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ولانخاف في الله لومة لائم».[2]

من خلال قراءة الأحاديث السابقة نلاحظ أن رسول الله دعى إلى طاعة الحكام، لكن هذه الطاعة مشروطة، بأن لاتكون في معصية الله، وفي حال ابتليت الأمة بحاكم ظالم، يبدأ في هذه الحالة، الصراع السلمي من خلال المعارضة القولية للمستبد، وحذر ﷺ من انتقال هذه المعارضة إلى معارضة مسلحة، لأن عاقبة هذه المعارضة الفتن، وعدم الاستقرار، واضطراب أحوال الأمة. ويبقى ظلم الحاكم أهون من الفتنة الناتجة عن الخروج عليه، أما من يقول كلمة الحق أمام الحاكم الظالم، فهو شهيد، إذا قتله هذا الحاكم الجائر نتيجة لقول كلمة الحق، فالفارق شاسع بين الخروج وبين الشهادة.

لكن الخروج على القانون الظالم ليس بقتال صاحبه، بل بعدم الالتزام بتنفيذه، وفي هذا مراقبة للحاكم من قبل الأمة، فتخفف من ظلمه، بل تكبحه عن ممارسة الظلم أصلاً، ويقوم بهذا الأمر الجلل ممثلوا الأمة من (محكمة دستورية عليا، نواب الأمة، أهل الحل والعقد، مجلس خبراء في كافة شؤون المجتمع... الخ).

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.[3]

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه الشيخان.

[3] سورة آل عمران: ١٠٤.

٢- واجبات الحاكم تجاه المحكوم:

إن العدل وإزالة الظلم، من الواجبات الرئيسة للحاكم تجاه الأمة، لأن الاسلام جاء ليزيل الظلم، ويشيع العدل بين الناس، ولم يأت ليزيل الكفر.

لذا فإن أغلب الأحاديث النبوية التي وردت في صفات الحاكم تحث الحاكم على العدل، لماله من عواقب حميدة سواء على المستوى الشخصي للحاكم في دنياه وآخرته، أو بالنسبة للجماعة الانسانية بشكل عام. فجزاء العدل الجنة، أما الظلم فجزاؤه النار، وبغض الله له.

«فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...».[١]

«وعن عياض بن حمار ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة ثلاثة: سلطان مقسط، ورجل رحيم القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق».[٢]

«وعن النبي ﷺ أنه قال: أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر».[٣]

والعدل هدف كل الشرائع السماوية قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط...﴾.[٤]

وقال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...﴾.[٥]

---

[١] رواه الشيخان.

[٢] رواه مسلم.

[٣] رواه الامام أحمد في مسنده.

[٤] سورة الحديد: ٢٥.

[٥] سورة النساء: ٥٨.

والعدل في المنظور الاسلامي عدل مطلق يجب أن يسود كل الظروف والفئات في حالة الرضى والنزاع مع الأصدقاء والأعداء.

قال تعالى: ﴿... ولايجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى...﴾.[1]

وقد حذر رسول الله من غش الرعية، «فقال ﷺ: مامن راع يسترعيه الله رعيته، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة».[2]

وقد دعا رسول الله للحاكم العادل الرفيق برعيته، ودعا على الحاكم الظالم: «فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».[3]

ومن واجبات الحاكم أن يختار الأكفاء لشغل مناصب الدولة معتمداً مبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع، دون اعتبارات النسب والقربى، أو الطبقة الاجتماعية.

«قال عليه الصلاة والسلام: من قلد رجلاً عملا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله، وخان المؤمنين».[4]

لكن هل يعتبر ظلم الحاكم قدراً مكتوباً على الأمة لاخلاص منه؟ وهل من المعقول أن يبقى الحاكم الظالم دون رقابة، أو أخذ على يديه، انتظاراً ليوم الحساب؟.

لعل في تطور الفكر السياسي الانساني وما وصل إليه من تجربة وممارسة فيه العلاج الصحيح لظلم الحاكم، وذلك بتحديد مدة حكمه، وبوجود هيئة دستورية

---

[1] سورة المائدة: ٨.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه مسلم.

[4] رواه الحاكم في صحيحه.

تراقب تصرفات الحاكم، ولاتسمح له بالظلم، خاصة إذا كانت هذه الهيئة مستقلة عن سلطة الحاكم. وأي حاكم وصل إلى الحكم بشكل ديمقراطي، لايمكنه إلا أن يعدل مع شعبه، لأنه يحتاج إليهم في مرحلة قادمة إذا أراد الاستمرار في الحكم، ولوجود معارضة سياسية تراقب كل صغيرة وكبيرة تصدر عنه، خاصة السلبيات منها.

يلاحظ أن الأحاديث السابقة تؤكد على ضرورة وجود الحاكم، ولزوم طاعته وإن كان ظالماً وصل إلى الحكم بطريق الاغتصاب، وتبين طرق المعارضة وتقويم الأخطاء أقلها الطاعة المشروطة والانكار القلبي، وأعلاها قول الحق، والاستشهاد في سبيل ذلك، وتحذر من الخروج على الجماعة لما له من عاقبة سيئة، وخطيرة على مستوى الفرد والجماعة.

المبحث الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبدأ هام في حياة الجماعة المسلمة وهو الذي أخرج المسلم من مرحلة العصا بيد الحاكم، إلى مرحلة الانسان الحامل للفكرة الذي لديه مقياس يستطيع على أساسه أن يقبل أو يرفض.

وقول الحق واجب على كل مسلم، أينما حل، في البيت، في المعمل، في الشارع.. الخ. وهو فرض عين على الأمة لايسقطه إلا قيام فئة أو جماعة بهذا العمل الهام. لكن ماهي مواصفات الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر؟

لقد حددها ابن تيمية قائلاً: «لابد من ثلاث صفات يجب أن تتوفر في الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وهي العلم، والرفق، والصبر.

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، هذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: لايأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه».[1]

لقد ربط الله سبحانه وتعالى بين خيرية الأمة، وقيامها بواجب الأمر

---

[1] ابن تيمية، تقي الدين أحمد عبد الحليم، الحسبة في الاسلام، (بيروت: دار الكاتب العربي، [د.ت])، ص٧٢، ٧٣.

بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾.[1]

أما الذين مكنهم الله في الأرض، فقد أناط بهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى الناتج عن أداء هذه الوظيفة الاجتماعية الهامة.

قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾.[3]

و«عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذ استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم ومأرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».[4]

هكذا نجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اجتماعية، لأن لهذا المبدأ وظيفة تطهيرية مباشرة، تمنع من تراكم الأخطاء، وزيادة الانحرافات التي تحدث عند تطبيق المبادئ النظرية، وممارستها عملياً، وفي غياب هذا المبدأ عن الساحة السياسية سنجد فرقاً شاسعاً، إن لم يكن مغايراً تماماً، بين النظرية وبين

---

[1] سورة آل عمران: ١١٠.

[2] سورة الحج ٤١.

[3] سورة لقمان: ١٧.

[4] رواه البخاري.

تطبيقاتها، وهو مايسمى بالنقد، والنقد الذاتي لأنه كمشرط الجراح الذي يزيل أسباب المرض الذي يصيب الجسم.

«عن حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».[1]

هذا على المستوى النظري أما على المستوى التطبيقي لهذا المبدأ فقد كانت هنالك مواقف عديدة بين الفقهاء والحاكم على مدى التاريخ الاسلامي. وذلك لتداخل السياسي مع الديني في الشريعة الاسلامية، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطبيقاً مباشراً للعقيدة.

وفي تجربة أبي ذر الغفاري المعارضة لسياسة الدولة، التي ابتعدت عن تعاليم الدعوة، في بعض تصرفات ولاتها، الذين فتحت عليهم الدنيا، ففيرت من أحوالهم، إلا بعض الصحابة الذين اتبعوا الزهد والورع سلوكاً حياتياً واعتبروا اقبال الدنيا على المسلمين من المهلكات، على الرغم من شرعية الأخذ من الدنيا بنصيب.

إن معارضة أبي ذر الغفاري لم تخرجه من الجماعة، ولم يدعو إلى ثورة مسلحة على أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ. فقد التزم الجماعة وقال الكلمة التي رأى أنها الحق.

«فعن عبد الله بن سيدان السلمي قال: تناجى أبي ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما، ثم انصرف أبو ذر مبتسماً فقال له الناس: مالك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامع ومطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة».[2]

---

[1] رواه الترمذي.

[2] ابن سعد، الطبقات الكبرى. (بيروت: دار صادر، ١٩٨٥) ج٤، ص٢٧.

يلاحظ من نص الحديث أن الطاعة قدر الاستطاعة مالم تكن في معصية. لقد عرض على أبي ذر، تشكيل جماعة مسلحة ضد عثمان بن عفان ﷺ فرفض، على الرغم من عدم رضائه عن تصرفات بعض الأمراء وعن بعض تصرفات الخليفة نفسه «فعن يزيد بن هارون قال: أخبرنا العوام بن حوشب قال: حدثني رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا: نزلنا الربذة فمر بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا: هذا من أصحاب رسول الله ﷺ فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا، فبينما نحن كذلك، إذ أتاه نفر من العراق، حسبته قال من أهل الكوفة، فقالوا: ياأباذر فعل بك هذا وفعل (يقصدون عثمان بن عفان ﷺ) فهل أنت ناصب لنا راية؟ فلتكمل برجال ماشئت فقال: ياأهل الاسلام لاتعرضوا علي ذاكم ولاتذلوا السلطان، فإنه من أذل السلطان فلا توبة له، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة، أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي، ولو سيرني مابين الأفق إلى الأفق، أو قال مابين المشرق والمغرب، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي، ولو ردني إلى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي».[1]

فقد «بدأ فقه السياسة كجميع فروع الفقه الأخرى بالحديث النبوي. ففي عصر الراشدين والعصر الأموي كان الحكم الشرعي يلتمس من القرآن و(الأثر) عموماً: مايروى من حديث وأخبار عن الرسول والصحابة، وبما أن القرآن لم يتعرض لمسائل الحكم والسياسة ولا لشكل الدولة، وبما أن الصحابة قد اختلفوا منذ وفاة النبي في هذه المسائل بالذات واستفحل الخلاف زمن الفتنة استفحالاً هدد

---

[1] م.س، ص.ن.

كيان المجتمع الاسلامي، فإن المرجعية الوحيدة التي كانت تلتمس منها الشرعية الدينية لقضايا السياسة هي (الحديث).».[1]

[1] الجابري، محمد عابد: نقد العقل العربي (٣)، العقل السياسي العربي - محدداته وتجلياته، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠) ص٣٥٦-٣٥٧.